صنعاء... رحلة داخل العمر

د . أحمد سمير حنفي أحمد

كنتُ أعتقد، بكل ثقة أكاديمية، أنني ذاهب إلى اليمن للمشاركة في ملتقى ثقافي؛ أُلقي بعض الكلمات، وألتقط بعض الصور، ثم أعود إلى مكتبي محملاً بملفٍ جديد يُضاف إلى أرشيف الرحلات ، لكن صنعاء كان لها رأيٌ آخر.

منذ اللحظة الأولى التي خرجتُ فيها من المطار، أدركتُ أن المسألة أخطر بكثير من مجرد مؤتمر ثقافي، هناك كان الأستاذ علي محسن الأكوع في الاستقبال، بابتسامته الهادئة وكرمه الذي يسبق صاحبه بخطوات، لم يكن يستقبل ضيوفاً، بل كان يستقبل أصدقاء عادوا إليه بعد غياب طويل، ومعه عدد من أبناء بيت الأكوع الذين جعلوا الغربة تتراجع منذ اللحظة الأولى، وما إن وصلنا إلى الروضة حتى بدأت الحكاية.

في بيت آل الأكوع، أدركت أن اليمنيين يمتلكون القدرة على تحويل الضيف إلى أحد أفراد العائلة خلال دقائق معدودة، جلس الشيخ محمد محسن الأكوع يروي الحكايات وكأنه يفتح خزائن صنعاء القديمة، وكان الأستاذ عبد الملك الأكوع وبقية الجلساء يضيفون إلى المجلس مذاقاً خاصاً لا يمكن العثور عليه في الفنادق الفاخرة ولا في القاعات الرسمية.

أما خالد عمر فقد تولى منذ البداية مهمةً أشبه بمهمة قائد أوركسترا محترف؛ لم يكن يترك تفصيلاً للصدفة، كل جولة مدروسة، وكل لقاء مرتب، وكل باب مغلق يعرف كيف يفتحه، كان يظهر فجأة ليقول: "هيا.. هناك مكان يجب أن تروه"، ثم نكتشف أننا أمام كنز جديد من كنوز صنعاء.

وأما الأستاذ السيد الشيشيني فكان قصة أخرى تماماً، فكل رحلة تحتاج إلى مؤرخ، وتحتاج إلى مثقف، لكنها تحتاج أكثر إلى شخص يمنعها من التحول إلى مؤتمر دائم، وهنا جاء دور الشيشيني، فبين كل نقاش ثقافي وآخر، كان يطلق تعليقاً ساخراً يجعل الجميع ينفجر ضاحكاً.

في إحدى الجلسات التي جمعت د. حنان منيب من مصر، ود. ممدوح الدوسري من السعودية، والأستاذة نوير العرادة من الكويت، والأستاذ علي مشيمع من البحرين، وغيرهم.. كان النقاش محتدماً حول قضايا الفكر والثقافة، وفجأة قال الشيشيني:

"المشكلة ليست في اختلاف الآراء... المشكلة أن كل واحد فينا مقتنع أنه المبعوث الرسمي للحقيقة!"

وكانت هذه روحه دائماً؛ يجمع بين المعرفة والفكاهة في خلطة نادرة.

ثم بدأت مغامرة صنعاء القديمة، هناك شعرت أنني لا أسير في مدينة، بل داخل رواية: الأبواب الخشبية العتيقة، القمريات الملونة، والحجارة التي تبدو أكبر سناً من التاريخ نفسه، وفي كل مرة نظن أننا اكتشفنا أجمل مكان، كان خالد عمر يظهر بابتسامته الواثقة: "انتظروا... الأجمل لم يأتِ بعد"، وكان محقاً في كل مرة.

زرنا الأسواق والمعالم والأحياء التراثية، وتجولنا في المناطق التاريخية المحيطة بصنعاء، كما رتّب لنا لقاءات ميدانية وثقافية متعددة جعلت المدينة تتكشف لنا طبقة بعد طبقة.

وجاءت ليلة بيت الروني وديوانيته الشهيرة، وهنا توقفت محاولاتي لفهم اليمن بالعقل؛ كان عليّ أن أفهمه بالقلب، الإنشاد اليمني يملأ المكان، والأصوات ترتفع كأنها خارجة من أعماق الجبال، وفؤاد الكبسي والمنشدون يبعثون التراث حياً أمام أعيننا، أما الشيشيني فكان يحاول أن يبدو متزناً ووقوراً، لكنه كان أول من هزته الألحان اليمنية، وكلما التفتنا إليه وجدناه يهز رأسه مع الإيقاع وكأنه عضو سري في فرقة الإنشاد!

ثم جاءت فعاليات الملتقى الثاني للاتحاد العربي للثقافة والإبداع، وعلى الرغم من أهمية الكلمات والأوراق العلمية، فإن أكثر ما لفت انتباهي هو شخصية الأستاذ علي محسن الأكوع؛ فهو لم يكن رئيساً يجلس على منصة فحسب، بل كان مضيفاً ومنظماً وداعماً وصاحب رؤية وصاحب قلبٍ يتسع للجميع، ولهذا قال الشيشيني عبارته الشهيرة التي ظلت تتردد في ذاكرتي:

"الأكوع ليس رئيساً للاتحاد... وإنما هو الرئيس!" .

ومن أجمل محطات الرحلة زيارتنا للبيت اليمني للموسيقى ، وبيت الفن، ولقاءاتنا مع الدكتورة أمة الرزاق جحاف، والفنانة لمياء الكبسي، والفنان هشام العلفي، وغيرهم من المبدعين الذين حملوا على عاتقهم مهمة حماية ذاكرة اليمن الفنية، اكتشفتُ هناك أن التراث اليمني ليس مجرد ماضٍ جميل، إنه مشروع مقاومة للنسيان.

أما زيارتنا لجامعة صنعاء ولقاء الدكتور عبد العزيز المقالح فقد كانت لحظة لالتقاط الأنفاس الأدبية العميقة، دخلنا مجلسه فاستقبلنا بهدوء المفكرين وتواضع الكبار،و لم يكن الرجل بحاجة إلى إطالة الحديث؛ فحضوره وحده كان كافياً، جلسنا نستمع إليه وخرجنا ونحن نحمل من الحكمة أكثر مما حملناه من الأوراق والكتب.

ثم جاء يوم الرحيل.... ذلك اليوم الذي حاول الجميع أن يتصرفوا فيه وكأن الأمر عادي، ولم ينجح أحد، رافقنا الأستاذ علي الأكوع حتى اللحظات الأخيرة، وكان كرمه في الوداع أكبر من كرمه في الاستقبال، شعرت أن الرجل لا يعرف أنصاف الحلول؛ إذا استقبلك استقبلك بكل قلبه، وإذا ودعك ودعك بكل قلبه أيضاً.

وعندما حلقت الطائرة فوق جبال صنعاء، التفت الشيشيني نحونا وقال ضاحكاً: "أخشى أن نعود إلى القاهرة فنكتشف أن صنعاء سافرت معنا!".

ابتسمنا جميعاً، ثم ساد صمتٌ شفاف؛ لأننا أدركنا أن عبارته لم تكن مجرد دعابة، فصنعاء... لم تكن محطة في رحلة ؛ بل أصبحت رحلةً كاملة داخل العمر.